

المطلب الأول: المجاورة بمكة المكرمة

مرّ بنا أنّ مكة المكرمة مواطن رحمة ومغفرة ومضاعفة للحسنات والسيئات، ولذلك فقد انقسم العلماء حول حكم المجاورة بها على قسمين⁽¹⁾:-

- **القسم الأول:** يرى كراهة ذلك، وهو رأي سيدنا أبي حنيفة ◀ (ت: 150هـ)، وغيره من العلماء المحتاطين، وذلك لثلاثة معان:-

- أحدها خوفاً من التقصير في حرمتها، واعتياد المكان والأنس به، وذلك يجزّئ إلى قلة المهابة والتعظيم، ولهذا كان سيدنا عمر بن الخطاب ◀ يأمر الحجاج بالرجوع إلى أوطانهم، وهم أنّ يمنع الناس من كثرة الطواف، وقال: خشيت أنّ يأنس الناس بهذا البيت⁽²⁾.

- الثاني:- تهيجُ الشوق بالمفارقة؛ لتنبعث داعية العودة فإنّ الله تعالى جعل البيت مثابةً للناس وأماناً، أي: يثوبون ويعودون إليه مرّةً بعد أخرى، ولا يقضون منه وطراً، وقال بعضُ السلف: كم من رجلٍ بخراسان وهو أقرب إلى هذا البيت ممن هو يطوف به!، ويقال: إنّ لله عبداً تطوف بهم الكعبة تقرباً إلى الله ﷻ⁽³⁾.

الثالث:- الخوف من ركوب الخطايا والذنوب، فإنّ ذلك مخطّرٌ، وبالحري يورث مقت الله ﷻ وعن ابن عباس رضي الله عنهما: لأنّ أذنبُ سبعين ذنباً برّكية أحبّ إليّ من أن أذنب ذنباً واحداً بمكة⁽⁴⁾.

- **القسم الثاني:** يرى استحباب ذلك، وهو رأي أكثر العلماء كالشافعي، وأبي يوسف ومحمد بن الحسن صاحبي أبي حنيفة، وابن القاسم صاحبُ مالك لأنّه قال: إنّ جوار مكة مما يُتَقَرَّبُ به إلى الله كالرباط والصلاة⁽⁵⁾.

(1) الغزالي، إحياء علوم الدين: 243/1، والقاسي، شفاء الغرام: 84/1-85.

(2) الغزالي، المصدر نفسه: 243/1، والمالكي، في رحاب البيت الحرام: 223.

(3) الغزالي، المصدر نفسه: 243/1.

(4) المصدر نفسه: 243/1.

(5) القاسي، شفاء الغرام: 84/1.

قال الغزالي رحمه الله: (ولا تظنَّ أنَّ كراهة المقام يُناقض فضل البقعة، لأنَّ هذه كراهة علتها ضعف الخلق وقصورهم عن القيام بحقّ الموضع)⁽¹⁾.

قال الدميري (ت: 808هـ): (أما السكنى بالمدينة فأفضل؛ لأنه ثبت من حديث ابن عمر رضي الله عنهما أنَّ النبي ﷺ قال: ﴿لا يصبرُ على لأوائها وشدتها أحدٌ.. إلا كنت له شفيعاً أو شهيداً يوم القيامة﴾⁽²⁾، ولم يرد في سكنى مكة شيءٌ من ذلك، بل كرهها جماعة من العلماء)⁽³⁾.

المطلب الثاني: -العباداتُ في مَكَّة بين التيسير والتعسير

من خصائص الأمة المحمدية أنَّ شريعتها أيسر الشرائع⁽⁴⁾، وذلك بنص القرآن قال تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُم الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُم الْعُسْرَ﴾⁽⁵⁾، وعن عائشة رضي الله عنها قالت: ﴿ما حُيِّرَ رسول الله ﷺ بين أمرين قطّ الا أخذ أيسرهما ما لم يكن إثماً، فإن كان إثماً كان أبعد الناس منه...﴾⁽⁶⁾؛ ولذلك فإنَّه ﴿كثيراً ما يحث أصحابه على التيسير، وينهاهم عن التعسير بقوله: ﴿يَسِّرُوا وَلَا تُعَسِّرُوا﴾⁽⁷⁾.

والتيسير ينبغي أن يُتخذ أساساً في العبادات، إذ إنَّ التعسير يُفضي إلى الضيق، والضيق يُذهب لذة العبادة، والتيسير يفضي إلى الانشراح، والانشراح ترافقه اللذة وهذا الأمر ينطبق على العبادات في البقاع عموماً، وفي البقاع المقدسة خصوصاً، لأن العبادات والتشريعات إنما وُضعت كي يستمتع بها المسلم استمتاعاً روحياً، فإذا لم تكن العبادة مُيسرةً يطمئن فيها القلب، ويتلذذ بها الخاطر ولا يتكدر وينتبه فيها الضمير وتعرج فيها الروح، فليس لها معنى إذ تُصبح حركات مجردة لا معنى

(1) الغزالي، إحياء علوم الدين: 1/243.

(2) مسلم، الصحيح: 2/1002 رقم 1374، وابن حبان، الصحيح: 9/56 رقم 3739.

(3) الدميري، كمال الدين أبو البقاء محمد بن موسى، النجم الوهاج في شرح المنهاج، تحقيق: لجنة من العلماء بإشراف: محمد غسان نصوح عزقول، ط1، دار المنهاج، جدة 1425هـ - 2005م: ج3/ص 466-467.

(4) المالكي، محمد بن علوي، خصائص الأمة المحمدية، ط2، المدينة المنورة، 1421هـ - 2000م: ص23.

(5) سورة البقرة، من الآية: 185.

(6) البخاري، الصحيح: 5/2269، رقم 5775، ومسلم، المصدر السابق: 4/1813 رقم 2326.

(7) البخاري، المصدر نفسه: 1/38 رقم 69، ومسلم، المصدر نفسه: 3/1359 رقم 1734.

لها ولا أثر لأدائها، وليست التشريعات أغلاً بل هي طريق للسعادة، وليست بقيود ولكنها من الرحمة، قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾⁽¹⁾، وخصوصاً العبادات والتشريعات الخاصة بالأمكان المقدسة كفريضة الحج، لأن وقت تلك الفريضة وقتاً خاصاً لهطول الرحمة الإلهية، ولولا أنّ الناس يستشعرون بل يتنسمون تلك النفحات لما استطاعوا أن يؤدوا مناسكهم لما يجدونه من مشقة ونصب في أداء تلك المناسك، فتللك النفحات تحرك الروح وتغذيها، وإذا تحركت الروح خفّ البدن، ولم يشعر بالنصب.

وهذا ما شاهدناه ولمسناه في تلك الرحاب الطاهرة والبقاع المقدسة، ثم يتوج ذلك كله بالعيد وتسمى أيامه أيام التشريق؛ لأنّ الحجاج تشرق أرواحهم لما تلقته من كرم الله، وما حظيت به من التوفيق على أداء العبادة، وتشرق صحائفهم؛ لأنّ جميع خطاياهم قد محيت، وقد ملأت صحائفهم حسنات، وتشرق حياتهم بصفحات جديدة ليس للأدران والذنوب فيها أثر، فإذا عاينت وجوههم رأيتهما مشرقة لما القي عليها من النور والبهاء والبركة والرحمة والسكينة فلكي يتحقق ذلك كله لا بد أن تكون العبادات ميسرة، وستتناول فيما يلي بعض تلك العبادات، ونبين الطريق القويم لتيسيرها: -

أ- الوقوف بعرفة: هو ركن من أركان الحج، بل هو الركن الأعظم؛ لأنه هو الركن الوحيد الذي لا يجبر، فمن فاته فقد فاته الحج، ومن أدرك منه وقتاً يسيراً ولو ساعة من ليل أو نهار فقد أدرك الحج لقوله ﷻ: ﷻ الحج عرفة⁽²⁾، وهو موطن من مواطن الرحمة والمغفرة، ولحظات من التجلي الأعظم، ومحل تسكب فيه العبرات على ما فات، وتبث فيه من الناس الحسرات على الزلات، وتتصاعد فيه الآهات على ما فرط من الخطايا، ويعم الخشوع، وتنهمر الدموع، فتستجاب الدعوات.

(1) سورة الحج، من الآية: 78.

(2) الترمذي، السنن: 3/237 رقم 289، وابن خزيمة، الصحيح: 4/257 رقم 2822، وصححه الحاكم، المستدرک على الصحيحين: 2/305 رقم 3100.

عرفة محل تجمع الأولياء في كل عام، ومكان لقاء للصالحين الكرام، يجتمعون عند موضع الصخرات حيث وقف النبي ﷺ على الأقدام، وتابعه في الوقوف أصحابه العظام، مهتئين أرواحهم وقلوبهم لتلقي الفيوض الربانية:

ويا نفحات الله يا عطفاته
ويا نظرات الله يا لحظاته
ويا غارة الرحمن جدي بسرعة
ويا سحب الجود الإلهي أمطري
ويا جذبات الحق جودي بزورة
ويا نسيمات اللطف أمي بهية
إلينا وحلي عقد كل ملمة
فإن أكف المحل تلقاك مدت (1)

ولهية ذلك الموقف العظيم، وفيض جود الله الكريم فإنه سبحانه جعل من يقف هناك ثم يظن أن الله لم يغفر له فقد أتى أعظم الذنوب، قال ﷺ: «أعظم الناس جرماً من انصرف من عرفات ويرى أن الله تعالى لم يغفر له» (2).
أقول:

وبعد تلك الرحمة يجلب المسلم لنفسه التكدير والمشقة ليعكر بها صفو ذلك المشهد الروحاني العظيم، فقد وقف النبي ﷺ على الصخرات في موضع معروف الآن ويسمى موقف النبي ﷺ، ولكي ييسر على أمته قال ﷺ: «وقفتُ هنا وعرفة كلها موقف» (3)، فالمسلمون منذ عهد الصحابة يتحرون الوقوف في ذلك الموقف، ومنهم من يرتقي الجبل.

وما يلاحظ في تلك البقاع-بقاع عرفة- كثرة الوعاظ الذين يهتفون بالناس بأن الصعود على الجبل بدعة، وأنه لم يرد عن النبي ﷺ أنه ارتقاها، والذي أراه من منظور التيسير يتجه نحو اتجاهين:-

-الاتجاه الأول: نحو الحجاج: فأقول: أيها الحجاج:-

(1) الأبيات لشيخ الاسلام والجماعة الحبيب عبد الله بن علوي بن محمد العلوي الحسيني. ينظر: المالكي، محمد: الحج فضائل

واحكام: 96.

(2) الديلمي، الفردوس بمأثور الخطاب: 1/359-360 رقم 1452.

(3) مسلم، الصحيح: 2/893 رقم 1218، وأبو داود، السنن: 2/187 رقم 1907، وابن ماجه، السنن: 2/1001 رقم 3010، وابن الجارود، عبد الله بن

علي ابو محمد النيسابوري (ت: 307هـ)، المنتقى، تحقيق: عبد الله عمر البارودي، ط1، مؤسسة الكتاب الثقافية، بيروت، 1408هـ-

1988م: ص122 رقم 465، وابن خزيمة، الصحيح: 4/298، رقم 2927.

1- إذا كنتم تظنون أنّ صعودكم فوقَ الجبل فيه فضيلة دون غيره من مواضع عرفة فأنتم مُخطئون.

2- لا ينبغي عليكم الصعود إلى الجبل إذا كان فيه عليكم كلفة ومشقة.

3- وإن كنتم تظنون أنّ حجّكم لا يكتمل إلاّ بصعودكم الجبل فأنتم واهمون.

4- وإذا ظننتم أن ارتقاءكم الجبل سنة فأنتم مخطئون؛ لأنّ السنة هي الوقوف في أيّ مكان من عرفة.

وأما موقف النبي ﷺ خاصة فهو عند الصخرات وقد كان الصحابة الكرام ◀ يتحرونه ومن وجدَ سهولةً في قصده فقد حظي بأجر وبركة، ولكن لو أراد الناس جميعاً أن يقفوا موقف رسول الله ﷺ عند الصخرات لتزاحموا عنده وأذى بعضهم بعضاً لأن المكان لا يسع تلك الجموع الغفيرة، ولعله من الممكن أن يمر المسلم فيقف فيه للحظات أو لوقت ما ولا بأسَ بذلك على نية تتبع آثار النبي ﷺ ليس إلاّ.

- الاتجاه الثاني: - نحو الوُعَاط: وهم الذين يتصدون للناس في تلك البقاع ويجعلون من صعودهم بدعةً، فنقول لهم: -

لم يرد نص في النهي عن صعود الجبل، بل على العكس فإنّ صعوده من سنة النبي ﷺ لأنّه بيّن ذلك بقوله: ﷻ وعرفة كلها موقف ﷻ⁽¹⁾، والجبل جزءٌ من الموقف، ولكن النبي ﷺ لم يصعده فنهي الناس عن صعوده من غير دليل على المنع قول مردود، وفهم خاطئ.

2- إنّ نهي المسلمين عن ذلك لا يجب إلا في حالة واحدة، وهي الخشية من أن يتزاحم الناس على الجبل فيتدافعون فينجمُ عن ذلك أذىً كبير لبعضهم البعض، فإن لم يحدث ذلك فلا بأسَ أن يقف المسلم على هذا الجزء من أرض عرفة.

(1) سبق تخريجه.

3- إنّ نهي المسلمين عن الوقوف عند الصخرات والتحريج عليهم في ذلك أمر خاطئ؛ لأنه موقف النبي ﷺ، ولطالما تحراه الصحابة، فهو أثرٌ من آثار النبي ﷺ يجب علينا الحفاظ عليه، ودليل ذلك من كتاب الله إذ قال سبحانه عن مكان وقوف إبراهيم: ﴿واتخذوا من مقام إبراهيم مصلّى﴾ (1)، فأمرنا باتخاذ مصلّى، وحفظه لنا عبر آلاف السنين وأمرنا أن نعامله بالتبجيل والتعظيم، وهو مقام نبي الله إبراهيم، فكيف بمقام سيد الأنبياء والمرسلين صلوات ربي عليه وعليهم أجمعين؟!

وخلاصة القول: لا ينبغي التشديد على الناس في أي موقف من عرفة إلا إذا تسبب بحدوث أذى، أو موقف نهي عنه النبي ﷺ وهو بطن عرنة.

ب: الإفاضة من عرفة: -ورد أنّ النبي ﷺ عندما أفاض من عرفة صلى المغرب مع العشاء جمع تأخير، عن أسامة بن زيد رضي الله عنهما قال: ﴿دفع النبي ﷺ من عرفة حتى إذا كان بالشعب نزل فبال، ثم توضأ وضوءاً خفيفاً فقلت له: الصلاة يا رسول الله، فقال: الصلاة أمامك، فركب رسول الله ﷺ حتى أتى المزدلفة فتوضأ فأسبغ الوضوء، ثم أقيمت الصلاة فصلى العشاءين، ولم يُصلّ بينهما﴾ (2).

فصلاة المغرب مع العشاء جمع تأخير هو ما ورد عن النبي ﷺ، وقد أفتى شيخنا الراحل حضرة الشيخ مصطفى كمال الدين (ت: 1986م - 1406هـ) بجواز أن تصلى المغرب مع العشاء جمع تقديم إذا رأى المسلم أنّ ذلك موافق لاستعداده وطاقته، وهو ما أراه لأمر:

1- أنّ النبي ﷺ عَجَّلَ بالنزول من عرفة؛ لأنها كانت آنذاك أرضاً مليئة بالهوام من السباع والحيات والعقارب، أمّا الآن فقد انتفت هذه العلة؛ لأنّ عرفة أصبحت مليئة

(1) سورة البقرة، من الآية: 125.

(2) البخاري، الصحيح: 1/65 رقم 139، ومسلم، الصحيح: 2/931 رقم 1280.

بالخدمات، كالأضواء الكهربائية والخدمات الأخرى، وليس للهوام وجودٌ فيها لأنَّ السلطات قد عالجتها وقضت عليها، فأصبحت أرضاً آمنة ليلها كنهارها.

2- كان عددُ الحجاج على زمن النبي ﷺ قليل مقارنةً بزماننا فكان نزولهم لا يستغرق وقتاً طويلاً كما كان نزولاً مُيسراً انسياً عن ابن عباس رضي الله عنهما: ﷺ أنه دَفَعَ مع النبي ﷺ يوم عرفة فسمع النبي ﷺ وراءه زجراً شديداً، وضرباً وصوتاً للإبل، فأشار بسوطه إليهم، وقال: أَيُّهَا النَّاسُ عَلَيْكُمْ بالسَّكينة فَإِنَّ البرَّ ليس بالإيضاع* ﷺ⁽¹⁾، وبذلك يظهر أن الحجاج في زمنه ﷺ قد وصلوا إلى محلِّ راحتهم دون أن يبذلوا جهداً كبيراً ولا وقتاً، وأما في زماننا فإنَّ عدد الحجاج صار بالملايين وهم يستقلون السيارات، فأصبح نزولهم بطيئاً جداً ومتعباً منهكاً، حيث إنَّه حدث في مرات عدة أن بعض القوافل لم تتم نزولها حتى الفجر، وبذلك فاتتهم الصلاتان بدخول الفجر، ثم إنَّ وصل هؤلاء الحجاج قبل الفجر فإنهم يصلون منهكين متعبين ولن يستطيعوا أداء فريضتهم، وإن استطاعوا فلن يؤدّوها بوعي تام وخشوع، بل بضجر وتبرم، فتذهب بركتها.

3- على عهد النبي ﷺ لم تكن في عرفات شيءٌ من الخدمات والحياة في حين كانت المزدلفة قرية مأهولة، وفيها الماء.

لذلك فإني أميل إلى التيسير على المسلمين، فإن وجد المسلم أنَّ لديه وقتاً كافياً ليؤدي الفريضتين جمع تأخير فله ذلك، وإن رأى أن يحتاج من أجل الوقت وتوفر الخدمات وكونه مطمئناً، فيؤدِّيها جمع تقديم فله ذلك، والمهم أن لا يشق المسلم على نفسه؛ لأنَّ ما رأيته مراتٍ ومرات عند الإفافة من عرفة أننا نصل قبيل الفجر، فنكون مجهدين متعبين مرهقين ليس لأحدنا طاقة أن يصلي بل همُّ أحدنا أن يضع جنبه على الأرض، وإن أراد أحدُ الوضوء لأجل الصلاة فكثيراً ما لا يجد ماءً

* الإيضاع: أي: السير السريع ويقال: هو سير مثل الخبيب فيبين ﷺ أنَّ تكلف الإسراع في السير ليس من البر، أي: مما يتقرب به. ابن

حجر، فتح الباري: 522/3.

(1) البخاري، المصدر السابق: 601/2 رقم 1587.

أو مكاناً ليصلي فيه، وذلك؛ لأنّ الناس جميعاً في تلك اللحظة يبحثون عن الماء لقضاء حاجاتهم فيكثر الزحام، فيصبح أداء الصلاة عليه شاقاً.

ج: رمي الجمار: وللعلماء آراء في وقت هذا المنسك نمر عليها مروراً سريعاً ومقتضياً كما يأتي:-

1- الحنفية: أما يوم النحر فأول وقت الرمي فيه من وقت طلوع الفجر وإنّ أخره إلى الليل رماه ولا شيء عليه، وإنّ أخره إلى الغد، رماه وعليه دم، فإذا زالت الشمس من الغد وهو أول أيام التشريق أتى الجمرات فيرمي كلّ جمرة بسبع حصيات (1).

2- المالكية: وللرمي وقت أداء وهو من طلوع الفجر إلى غروب الشمس يوم النحر، ووقت قضاء: وهو كل يوم من أيام الرمي ولا خلاف في وجوب الدم مع الفوات، فإذا زالت الشمس من كل يوم من الأيام الثلاثة أتى الجمرات فرماها (2)، وقال السيد محمد بن علوي المالكي: (لا يصح الرمي في هذه الأيام إلاّ بعد زوال الشمس ويبقى وقته إلى غروبها. وقيل يبقى إلى طلوع الفجر، والأول أصح) (3).

3- الشافعية: المستحب أن لا يرمي يوم النحر إلا بعد طلوع الشمس، وإن رمى بعد نصف الليل وقبل طلوع الفجر أجزأه؛ لأنّ النبي ﷺ أجاز للضعفة أن يرموا جمرة العقبة قبل طلوع الشمس، وأما الأيام الثلاثة التي بعده فبعد الزوال (4).

وقال الإمام النووي: (قال طاووس وعطاء يُجزئه في الأيام الثلاثة قبل الزوال) (5).

(1) ينظر: السغدّي، علي بن الحسين بن الحسين بن محمد (ت: 461هـ)، النتف في الفتاوى، تحقيق: د. صلاح الدين الناهي، ط2، مؤسسة

الرسالة، دار الفرقان، بيروت، عمان: ج1/ص224، والمرغيناني، علي بن أبي بكر بن عبد الجليل (ت: 593هـ)، متن بداية

المبتدي، تحقيق: حامد إبراهيم كرسوان، محمد عبد الوهاب، ط1، مطبعة محمد علي صبيح، القاهرة، 1355هـ: ص47.

(2) ينظر: العبدري، محمد بن يوسف بن أبي القاسم (ت: 897هـ) التاج والإكليل، ط2، دار الفكر، بيروت، 1398هـ: ج3/ص136، وأبو الحسن

المالكي، كفاية الطالب الرباني، تحقيق: يوسف الشيخ محمد البقاعي، دار الفكر، بيروت، 1412هـ: ج1/ص681-685.

(3) المالكي، محمد: الحج فضائل وأحكام: 121.

(4) الشاشي، محمد بن أحمد (ت: 507هـ)، حلية العلماء، تحقيق: د. ياس أحمد إبراهيم درداة، ط1، مؤسسة الرسالة، دار

الأرقم، بيروت، عمان، 1400هـ: ج3/ص299، والشيرازي، إبراهيم بن علي بن يوسف، المهذب، دار الفكر، بيروت: ج1/ص227، باختصار.

(5) النووي، شرح صحيح مسلم: 48/9.

4- الحنابلة: ورمي الجمار مُرتباً فيرمي يوم النحر جمرة العقبة بسبع حصيات؛ لأنَّ النبي ﷺ بدأ بها، ولأنها تحية منى، ويرمي الجمرات الثلاث في أيام التشريق كل يوم بعد الزوال، فإن أحر رمي العقبة إلى المساء رمى ولا شيء عليه، فإن لم يرم حتى جاء الليل لم يرم وأحره إلى غد بعد الزوال⁽¹⁾، وعن حنبل: (يجوز رمي مُتَعَجِّل قبل الزوال)⁽²⁾. فالذي عليه جمهور الفقهاء والعلماء والمحدثين أنَّ وقت رمي الجمرات الثلاث يدخل بزوال الشمس لما روي أنَّ سيدنا جابراً ◀ قال: ➡ رمى النبي ﷺ يوم النحر ضحى، ورمى بعد ذلك بعد زوال الشمس ➡ (3).

قلت: وقد أفتى علماء الحرمين بجواز الرمي في الأوقات الأخرى، ومنهم السيد محمد بن علوي المالكي المكي رحمه الله حين قال: (جَوَّز العلماء من أرباب المذاهب الرمي قبل الزوال وهو وإن كان ضعيفاً في نظر بعضهم لكنه مفيد وسديد ويحل مشاكل عظيمة، ويفتح أبواباً كثيرة للرحمة والتسهيل خصوصاً بعد سقوط مئاتٍ من الحجاج في ساحة الجمرات عند الرمي بعد الزوال وموت أكثرهم تحت الأقدام من الزحام)⁽⁴⁾.

والذي أميل إليه هو جواز الرمي في أيِّ وقتٍ من أيام التشريق، وأستدلُّ على ذلك بأمورٍ عدة:-

1- إنَّ النبي ﷺ قد رَخَّص للضعفاء والنساء أن يرموا جمرة العقبة قبل الناس عن عطاء قال: أخبرني ابن عباس، قال، قال رسول الله ﷺ للعباس ليلة المزدلفة: ➡ إذهب بضُعفائنا ونسائنا فَلْيُصَلِّوا الصبحَ بمنى وَلْيَرْمُوا جمرة العقبة قبلَ أن تصيبهم دفعة

(1) ينظر: الخرقى، أبو القاسم عمر بن الحسين (ت: 334هـ)، المختصر، تحقيق: زهير الشاويش، ط3، المكتب

الإسلامي، بيروت، 1403هـ: ج1/ص61، وابن تيمية، أحمد بن عبد الحلیم (ت: 727هـ) شرح العمد، تحقيق: د. سعود صالح

العطيشان، ط1، مكتبة العبيكان، الرياض: ج3/ص557، والمرداوي، علي بن سليمان (ت: 885هـ)، الإنصاف في معرفة الراجح من

الخلافاً، تحقيق: محمد حامد الفقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ج4/ص37-38، والبهوتي، منصور بن يونس بن

الدريس (ت: 1051هـ)، الروض المربع، مكتبة الرياض الحديثة، الرياض: ج1/ص514.

(2) المقدسي، الفروع: 3/382.

(3) البخاري، الصحيح: 2/621 رقم 1658.

(4) المالكي، محمد: الحج فضائل واحكام: 128.

الناس، قال: فكان عطاء يفعله بعدما كبر وضعف \Rightarrow (1)، فالعلة التي جَوَّز لأجلها النبي \Rightarrow لهؤلاء أن يرموا في وقت آخر هو ضعفهم وخشية النبي \Rightarrow عليهم أن يدهمهم الناس فيؤذوهم، وفي زمننا هذا أغلب الناس ضعفاء. مع العلم أنَّ عدد الحجاج في زمنه أقل بكثير من عُشر عددهم في زمننا، ثم إنَّ في إجازته تلك نظرة بعيدة إلى المستقبل.

2- تجويز عطاء وطاووس وبعض الحنابلة للرَّمي قبل الزوال.

3- إن هذه الفتوى حاجةٌ من حاجات العصر؛ لأمرين:-

أ- إنَّ الناس قد كثروا فبعد أن كان العدد بالمئات أو بالآلاف على زمن النبي \Rightarrow أصبح العدد بالملايين فأصبح التدافع والزحام يؤدي إلى موت كثير من الناس وحياة المسلم عند الله غالية، وحرمة أعظم من حرمة الكعبة ذاتها، وبما أنَّ هذه الفتوى تسهم إسهاماً كبيراً في منع تلك الحوادث، وبالتالي تؤدي إلى الحفاظ على حياة الكثيرين فهي حاجة العصر.

ب- ولو فرضنا عدم حصول حوادث وفاةٍ فإنَّ التدافع الناتج عن الزحام الكثيف وحده كفيل بالجنوح إلى تلك الفتوى لأنَّ هذا التزاحم يؤدي إلى غياب شرط أساسي في العبادات عن الرمي ذلك الشرط هو الاطمئنان، وبيان ذلك أن من يرمي في الزحام غالباً لا يعرف كم رمى أو كيف رمى؟، وهل سقطت الجمرات في المحل المخصوص؟، فيبقى غير مطمئن، ويتطرق الشك إلى نفسه والعبادات لا تصح عند الشك وإنما تبنى على اليقين.

مَشْرُوعٌ تَيْسِيرِيٌّ مُتَكَامِلٌ

(1) الطحاوي، أحمد بن محمد بن سلامة بن عبد الملك (ت: 321هـ)، شرح معاني الآثار، تحقيق: محمد زهري النجار، ط1، دار الكتب

العلمية، بيروت، 1399هـ: ج2/ص215، ولم أجده فيما بين يدي من كتب الصحاح والسنن والمسانيد والمعاجم.

* إنما قلت ذلك لأنَّ الوفيات نتيجة التدافع عند الجمرات تحدث سنوياً تقريباً، ولم يعد ذلك خافياً.

لعل سائلاً يسأل: هل إنَّ جعل الرمي على مدار الساعة يحل المشكلة حلاً جذرياً؟، ولا سيما أنكم دعوتكم إلى إلغاء النسبة* مما يعني زيادة العدد؟ وهل أن مسألة الزحام هي المعضلة الوحيدة المتعلقة بأيام الرمي؟ فأقول: لكي تحل هذه المسألة حلاً جذرياً لا بد من دراسة عميقة تحيط بها من جوانبها جميعاً، وتكون دراسة متكاملة شاملة، ذات رؤية واضحة وخطوات سديدة. وبادئ ذي بدء أقول: لولا الجهود الجبارة التي تبذلها الحكومة السعودية في خدمة المشاعر المقدسة لكان ما كان مما لا يخطر بالحسبان، ولا يمر ببال، وكلما مرت السنون تقدمت الحكومة بخطوات واسعة، لخدمة الحجيج قصداً منها للتيسير وطلباً لراحة القاصدين فمما يتعلق منها برمي الجمرات توسيع الطريق الذي يمر به الحجاج عند الرمي وجعله على عدة طوابق، ومنها توسيع الشاخص الذي ترمى عليه الجمرات الذي يمثل رمز الرمي، ومنها الفتوى التي صدرت عن علمائها بجواز الرمي في كل أوقات اليوم كل تلك الجهود تصب في التيسير، ومع كل هذا فإننا نسعى إلى ما هو أفضل ومن أجل التيسير فإنني سأعرض نظريتي في المعالجة الجذرية في نقاط، فأقول وبالله التوفيق وعليه التكلان:-

-أولاً: ملاحظاتٌ حَوْلَ بَحْثِ الحَجَّيجِ فِي مَنَى

تقوم الحكومة السعودية سنوياً بنصب الخيام للحجيج في منى وعلى مساحة واسعة جداً، كما قامت بحفر الأنفاق في الجبال لِتُيسِّرَ اتصال الحجيج بمواطن الرجم، ومع تلك الجهود الكبيرة فقد ظهرت على الساحة مشكلات عديدة لعلَّ أبرزها:-

1- قيام بعض الحجيج بأمور خارجة عن نطاق الترتيب والتنظيم كجلوسهم في الطرقات بل ونوم بعضهم فيها مما يسبب عرقلةً كبيرة للسائرين ذهاباً وإياباً، وبعض هؤلاء حجاج غير مصرَّح لهم من المملكة.

* ينظر: المطلب الخامس من المبحث الثاني من هذا الفصل.

2- إنَّ اتساع مساحة منى أدى إلى اتساع الطرق وهو يؤدي بدوره إلى كثرة السيارات والحافلات التي تسهم في تلوث الأجواء هناك بنسبة عالية جداً، بالإضافة إلى ما تصدره من ضجيج وأصوات مرتفعة وهي تؤثر على نفسية الحجيج وتتسبب في إزعاجهم، ومما هو معلوم أنَّ الأصوات تؤثر على الأعصاب.

3- إن مناطق رمي الجمار أصبحت تبعد عن كثير من نواحي منى بعدة كيلومترات، مما يتسبب بإرهاق الحجيج بسبب بعد المسافة فيضطر كبار السن إلى المبيت في الطرقات وهذا يؤدي بدوره إلى أنهم يأكلون في تلك الأماكن نفسها، ويرمون فضلات الطعام فيها فتكون تلك الأماكن مأوى للحشرات والروائح الكريهة والفيروسات الممرضة، فضلاً عن إن تكدس الأزبال وحده هو مشهد غير حضاري بل يسهم في تشويه المنطقة، ولقد مررتُ بإحدى تلك المشاهد في إحدى السنين وكان برفقتي دكتور طبيب، فكنت أردد بصوت منخفض قول الشاعر عبد الرحيم البرعي

تالله ما أحلى المبيت على منى
فأجاني ذلك الدكتور على الفور: نعم ولكن ليس في منظر كهذا.
في ليل عيد أبرك الأعياد⁽¹⁾

ثانياً: المقترح التيسيري

بما أن منى واسعة جداً وهي تمتد لعدة كيلومترات، فالمقترح هنا هو أن تبنى فيها مجمعات سكنية ليستقر فيها الحجاج في تلك الأيام، وصفة هذه المجمعات الرئيسة هي الضخامة والقرب من الجمرات.

فأما الضخامة فتكون بالبناء العمودي "الطوابق" لا الأفقي؛ لكي تسع الحجاج جميعهم سواء المقيمين داخل المملكة، أم الوافدين، أم الفقراء من كلا الفريقين.

(1) المسعودي، حافظ حسن، شرح ديوان البرعي، ط1، المكتبة الحسينية، مصر، 1353هـ-1943م، ص248.

ولا بد أن نوزع هذه المجمعات توزيعاً منتظماً أولاً من حيث البناء، وثانياً من حيث إسكان الحجيج.

ولنفترض أننا أنشأنا عشرة مجمعات، وكل مجمع مقام على مساحة 2500م² بالبناء العمودي الذي يتكون في أبسط الأحوال من عشرات الطوابق، ونجعله يتسع لما يقرب من 250000 حاجاً، فإذا أنشأنا عشرة مجمعات فإنها ستتسع لـ (2500000) حاجاً.

ثم نقوم بإنشاء عشرة أخرى تقابلها مكانياً، وبذلك سنستوعب ما يقرب من (5000000) حاجاً.

ثم نُخصّص لحجاج كل دولة أو مجموعة من الدول المتقاربة - من حيث اللغة والعادات - مجمعاً سكنياً يسمى باسمهم لا يسكنه غيرهم، كأن نسمي أحدها: مجمع إسكان حجاج شبه الجزيرة العربية، وهكذا: مجمع إسكان حجاج دول شرقي آسيا وهكذا...

ثم نجعل خروج هؤلاء خروجاً منظماً على وفق قانون لا يسمح بمخالفته، فنجعل لكل مجموعة تسكن مجمعاً سكنياً وقتاً محدداً من اليوم يخرجون فيه لرمي الجمرات، فإذا عادوا سُمح لأهل المجمع السكني الثاني بالخروج وهكذا حتى تُتم جميع المجمعات رميها، وإذا أخذنا إلى جانب ذلك بفتوى جواز الرمي على مدار اليوم حصلنا على رميٍّ مُيسَّرٍ جداً مهما ازداد عدد الحجيج وليس بعد ذلك ما يمنع من إنشاء وسيلة نقل كالقطار من حيث الترتيب تحمل الحجيج على طريق دائري يبدأ من مقر سكنهم وينتهي به، فإذا وصلت بهم مقابل كل جمرة توقفت قليلاً حتى يرموا وهم في داخلها، وبذلك نكسب الجهد والوقت.

ملاحظة: لا ينفذ هذا المشروع إلا بعد دراسته مع ذوي الاختصاص ووضع الخطط اللازمة المتكاملة له.

- ثالثاً: مَرَدُودَاتُ إِيْجَابِيَّة

ولهذا المشروع مردودات إيجابية كثيرة، منها:-

1- إنَّ مشروع البناء يقلل قطعاً من المسافة بين الحاج والجمرات فكما هو معلوم أنَّ الخيام تمتد لمساحة أفقية، ومشروع البناء عمودي، وأقلّ ما في ذلك أننا نجعل في أذهاننا أننا سنبنّي ما يعادل مئتي خيمة ولكنها ستأخذ مساحة خيمة واحدة لأنَّ البناء عمودي، لا أفقي، وبذلك ستقل المسافة التي يقطعها الحاج إلى الربع تقريباً، ونعمل على راحته، وتيسير رميه.

2- أننا بهذا المشروع نقدم خدمة للضعفاء من الأمة وبذلك نكون قد طبقنا سنة النبي ﷺ وأرضينا قلبه الشريف لأنَّ قلبه كان مع الضعفاء دائماً لا مع الأقوياء؛ لأنَّ الأقوياء يستطيعون تدبر أمرهم.

ثم إننا نتخذ من تلك الخدمة سبباً للنصر، لقوله ﷺ: ﴿هل تنصرون وترزقون إلا بضعفائكم﴾ (1).

3- المساهمة في تقليل العبء عن أجهزة الدولة؛ لأنه وكما هو معلوم أن عدد الحاج في منى سنوياً بالملايين، بل في السنوات الأخيرة لم يقل عن أربعة ملايين حاجاً وهذا العدد يعادل سكان دولتين من دول الخليج الصغيرة، فتحتاج المملكة من أجل السيطرة عليه كادراً أمنياً كبيراً وهو يعادل كادر دولة من حيث الأجهزة الأمنية، والخدمات الطبية وعمال التنظيف، ومما يزيد العبء على الدولة هو كون هؤلاء الحاج مفرقين على مساحة واسعة، فإذا تمكنا من اختصار المساحة، فإنه يسهل السيطرة عليها؛ لأنها في مكان واحد محدّد ومحصور، كما أنَّ نفائهم تكون في موضع واحد، فنقل بذلك من عدد الموظفين الأمنيين وعدد العمال، فتتوفّر للدولة مبالغ هؤلاء ورواتبهم وبذلك نسهم في تيسير الأمر على الحكومة وأجهزتها كافة.

4- بهذا المشروع تحكم الأجهزة الأمنية سيطرتها على السُّراق الذين يتحينون الفرص لأنَّ أمتعة الحاج وأموالهم داخل تلك البنايات تكون في حرز.

(1) البخاري، الصحيح: 3/1061 رقم 2739.

5- إظهار الصورة الحقيقية للإسلام فهو دين حضارة، وأول لبنة في بناء الحضارات هي التنظيم، فلا بد أن يبدأ التنظيم من العبادات، وبهذا المشروع يمكننا تنظيم تلك العبادة.

6- التخلص من الزحام المتعمد وغير المتعمد الذي يؤدي غالباً إما إلى حدوث السرقات، أو إيذاء ذوي الأمراض المزمنة.

7- إظهار الصورة المشرقة للمشاعر المقدسة من خلال تنحية مشكلة النفائات وذلك ينعكس إيجاباً على سمعة المملكة ويسهم في تنقية بيئتها، سواءً من فضلات الأطعمة، أو من الغازات والدخان الذي تصدره المركبات.

رابعاً: هل من سلبيات؟

قد يسارع معترض إلى القول بأن في هذا المشروع أمرٌ سلبيٌّ كبير، وهو إنَّ المملكة ستنفق على تلك المباني أموالاً طائلة، ثم لا تُستخدم إلا لأيام معدودات ثلاثة أو أربعة.

وللجواب على ذلك أقول:-

1- إنَّ المملكة لن تنفق أموالاً تزيد على ما تنفقه كلَّ عام؛ لأنها تنفق أموالاً على الخيام الكثيرة المضادة للحرائق ومعها ملحقاتها.

كما إنها تنفق أموالاً طائلة على العمال وبهذا المشروع سيختزل عددهم وتوفر رواتبهم، وكذلك رواتب رجال الأمن، لتستعمل في المشروع.

2- لا مانع بأن تستعين المملكة بالدول الإسلامية على إتمام هذا المشروع، وجميع تلك الدول تتمنى أن تسدي خدمةً للحرمين الشريفين، وتجعل لها صدقة جارية في تلك البلاد المقدسة التي تضاعف فيها الحسنات، ولا سيما أنَّ هذا المشروع يصبُّ في خدمة الجميع.

3- من نظر بعين الإنصاف للإيجائيات السابقة الذكر هانت عليه النظرة إلى البناءات.

كُلَّ ذلك من أجل التيسير على ضيوف الرحمن والله من وراء القصد.
اعترضان وَرَدُّ

في دراسة للدكتور عبد الله بن صالح الرقيبة عن الأماكن المقدسة ذكر سببين للإحجام عن بناء المساكن للحجاج في منى بقوله: (أما محاولة حلّ المشكلة بواسطة الأبنية المسلحة المتعددة الأدوار بوسط وادي منى، فالحقيقة أنها لا تتفق وطبيعة مظاهر الحج ومشاعره الخاصة وأنّ السنة النبوية تدعو إلى عدم البناء فيها وأنّ منى لمن سبق، بالإضافة إلى أنّه ثبت من الناحية الصحية أنّ إقامة الحجاج في خيام شرعية، ذات تهوية جيدة أفضل من إقامتهم في المباني الخرسانية، أو المتعددة الأدوار، وذلك أنّه تبين من خلال البحث الكيميائي الذي أجراه مركز أبحاث الحج في عام 1399هـ بوادي منى أنّ المحتوى الميكروبي لكل ستمتر مكعب في أجواء محلات الإقامة الخرسانية "الأبنية" أعلى من محلات الإقامة في الخيام (الشرعية)⁽¹⁾.
وَرَدًا على ذلك أقول:

- أما المانع الشرعي الذي أشار إليه: فهو يقصد ما روي عن عائشة رضي الله عنها قالت ➡ قال - تعني رجل - يانبي الله ألا بنى بمنى بناءً فيظلك؟، قال: لا، منى مناخ من سبق ➡⁽²⁾، والحديث صحيح لا غبار عليه، ولكننا ينبغي أن نعرف علة النهي، قال المباركفوري: (أي: لا تبناؤا لي بناءً بمنى؛ لأنّه ليس مختصاً بأحد، إنما هو موضع العبادة من الرمي، وذبح الهدى، والحلق ونحوها، فلو أجزز البناء فيه لكثرت الأبنية وتضييق المكان)⁽³⁾، وقال المناوي: (فلا يجوز البناء فيها لأحد؛ لئلا يكثّر بها البناء فتضييق

(1) الرقيبة، د. عبد الله بن صالح، بحث بعنوان (الأماكن المقدسة والحج) مطبوع ضمن الموسوعة الجغرافية للعالم الإسلامي الصادرة عن

جامعة محمد بن سعود: ج3/ القسم الأول: 314-315.

(2) أبو داود، السنن: 2/ 212 رقم 2019، والترمذي، الجامع الصحيح: 3/ 228 رقم 228، وقال: هذا حديث حسن صحيح، وابن

خزيمة، الصحيح: 4/ 284 رقم 2891.

(3) تحفة الأحوذى: 3/ 529.

على الحاج⁽¹⁾، إذن سبب النهي هو عدم التضيق على الحاج لأن المقصود بالنهي هو المساكن الخاصة، أي: لا تبنيوا بناءً خاصاً من أجل السكن كي تضيقوا على الحاج، وقد تبين من خلال تفاصيل مشروعنا أنه يهدف إلى التوسعة على الحاج وتنظيم حركتهم وتقليل الاختناقات فهو الذي يدفع الضيق ويقلله.

-وأما ما يخص المحتوى الميكروبي في منى، فإننا نقول إنّ منى جزءٌ من مكة، ومكة مليئة بالعمارات وما بين وادي منى وتلك البنايات جبلٌ فقط، وتلك المنطقة هي العزيزية الجنوبية مليئة بالعمارات الشاهقة، فما الفرق بينهما؟!!

ولاشك أنّ المشروع الذي طرحناه بضخامته لن يصعب عليه جلب تقنية حديثة لتنقية أجواء منى والقضاء على المكروبات.

د- أركان الكعبة بين التقبيل والاستلام: ثبت بالأحاديث الصحيحة أنّ النبي ﷺ كان يستلم الركنين -الحجر الأسود والركن اليماني-، عن أسلم أنّ عمر بن الخطاب قال للنّبي ﷺ: «أما والله إني لأعلم أنك حجّرت لا تضر ولا تنفع، ولولا أنّي رأيت رسول الله ﷺ استلمت ما استلمت...»⁽²⁾، وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: «ما تركتُ استلام هذين الركنين في شدة ولا رخاء منذ رأيت النبي ﷺ يستلمهما...»⁽³⁾، كما ثبت أنّ النبي ﷺ قبل الحجر الأسود، عن الزبير بن عري قال: «سأل رجل ابن عمر رضي الله عنهما عن استلام الحجر، فقال: رأيت رسول الله ﷺ يستلمه ويقبله، قال، قلتُ رأيت إن زُحمتُ، رأيت إن غلبتُ، قال: اجعل "أرأيت" باليمن، رأيتُ رسول الله ﷺ يستلمه ويقبله»⁽⁴⁾.

فتقبيل الحجر واستلام الركن اليماني مما أجمع العلماء على أنّه ثابتٌ من فعل النبي ﷺ فهو سنة، والمسألة هنا تبرز من خلال فعل النبي ﷺ وذلك أنّه استلم الحجر

(1) فيض القدير: 244/6.

(2) البخاري، الصحيح: 582/2 رقم 1528، ومسلم، الصحيح: 925/2 رقم 127.

(3) البخاري، المصدر نفسه: 582/2 رقم 1529، ومسلم، المصدر نفسه: 924/2 رقم 1268.

(4) البخاري، المصدر نفسه: 583/2 رقم 1533.

مرةً وقبله أخرى؛ وإنما فعل ذلك تيسيراً على الأمة لئلا يظنوا أنّ المشروع هو التقبيل فقط وإنما الاستلام باليد أيضاً، وليوسّع النبي ﷺ على أمته فقد استلمه مرةً بالمحجن*، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: ﷺ طاف النبي ﷺ في حجة الوداع على بعير يستلم الركن بمحجن ﷻ (1)، ثم وسّع من دائرة التيسير حين شرّع لأمته جواز الإشارة إليه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: ﷺ طاف النبي ﷺ بالبيت على بعير كلما أتى الركن أشار إليه ﷻ (2).

وأما الركن اليماني فإن ما ثبت واشتهر أن النبي ﷺ كان يستلمه، وقد رويت بعض الروايات تفيد أنه قبّله أيضاً، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: ﷺ كان رسول الله ﷺ إذا استلم الركن اليماني قبّله ﷻ (3)، وعنه أيضاً: ﷺ كان النبي ﷺ يُقبّل الركن اليماني ويضع خده عليه ﷻ (4)، قال الفاسي: (تقبيل النبي ﷺ الركن اليماني ووضع خده عليه لا يثبت) (5)، قال السيد محمد بن علوي المالكي موضحاً كلام الفاسي: (لا بد من تقييد كلامه بأن نقول: لا يثبت، أي: من طريق صحيح؛ إذ ثبت من طريق الدار قطني وغيره كما تقدم مع ما فيها مما يمكن أن ينجر مثله) (6).

وخلاصة ذلك أنه يجوز تقبيل الركن اليماني فليس من داعٍ إلى التشديد بأن نقول: إن تقبيله بدعة، فالأمر متروك لاختيار المسلم إن شاء قبله وإن شاء استلمه فحسب وإن شاء ترك الاثنين فله ذلك، وذلك يتوقف بالتأكيد على شدة الزحام أو قلّته.

* المحجن: هو عصا منحية الرأس. ابن حجر، فتح الباري: 473/3.

(1) البخاري، المصدر السابق: 582/2 رقم 1530، ومسلم، المصدر السابق: 927/2 رقم 1275.

(2) البخاري، المصدر نفسه: 583/2 رقم 1534.

(3) البخاري، التاريخ الكبير: 289/1، والبيهقي، السنن الكبرى: 76/5 رقم 9017.

(4) ابن أبي شيبة، المصنف: 403/3 رقم 1538، وعبد بن حميد، المسند: 215 رقم 638، وأبو يعلى، المسند: 472/4 رقم 2605 والدارقطني، السنن: 290/2 رقم 242 وقال الهيثمي: رواه أبو يعلى وفيه عبد الله بن مسلم بن هرمز وهو ضعيف. مجمع الزوائد: 241/3 رقم

(5) الفاسي، شفاء الغرام: 172/1.

(6) الحج فضائل وأحكام: 273.

الرُّكْنَانِ الشَّامِيَّانِ

مرّ بنا أنّه قد وردت أحاديث صحيحة في استلام الركنين اليمانيين، ولكن: هل ورد في الركنين الآخرين "الشاميين" شيء؟

استدل جمهور العلماء على أنّ الركنين الشاميين لا يستلمان بما ورد عن سالم ابن عبد الله عن أبيه رضي الله عنهما قال: ﴿لم أر النبي ﷺ يستلم من البيت إلاّ الركنين اليمانيين﴾ (1).

ولكن وردت رواية في الصحيح عن أبي الشعثاء أنّه قال: ﴿ومن يتقي شيئاً من البيت، وكان معاوية يستلم الأركان، فقال له ابن عباس رضي الله عنهما: إنه لا يستلم هذان الركنان، فقال: ليس شيء من البيت مهجوراً، وكان ابن الزبير رضي الله عنهما يستلمهنّ كلهن﴾ (2).

فالذي أراه هو جواز استلام الأركان كلها وإنّ في الأمر سعة لمن قدر على ذلك، فإن قيل، فما جوابكم على الأحاديث التي تخصّص الركنين فقط؟ قلت: الإجابة على ذلك من وجوه:-

-الأول: إنّ النبي ﷺ مُشَرَّعٌ فلو استلم الأركان كلها لالتزم أصحابه ومن بعدهم بذلك، كما قال ابن عمر لذلك الرجل "اجعل رأييت باليمن"، وفي ذلك مشقة على الأمة كما لا يخفى؛ لأن الحرم دائماً في أيام المواسم يكون مزدحماً.

-الثاني: إنّ فعل النبي ﷺ نفسه بالركنيتين الآخرين يدل على أن التيسير هو مقصوده، فمرة قَبْلَ، ومرة استلم، ومرة أشار من بعيدٍ، ومرة ترك، وهو بكل هذه الأفعال يشير إلى أنّ المسلم إذا تيسر له أحدها جاء به وهو مأجور، فإن قيل: لو كان في ذلك الفعل دلالة على التيسير لاستلمهما النبي ﷺ كلها ثم ترك، والجواب على ذلك: أن أول خطوة في التيسير تبدأ بما يستطيعه عموم الناس وفي الظروف

(1) البخاري، الصحيح: 2/583 رقم 1531، ومسلم، الصحيح: 2/925 رقم 1269.

(2) البخاري، الصحيح: 2/582 رقم 1531.

الطبيعية، ثم تبدأ بالنزول مع تدرج حال الناس في الضعف، ومعلوم أن التشريع يتناسب مع حال أضعف الناس وفي أضعف الأحوال.

- الثالث: لو نظرنا إلى الأحاديث الواردة في الباب لم نجد فيها أن النبي ﷺ نهي عن استلام الركنين، وبما أنه استلم جزءاً من الكعبة وهو ركنها جاء استلام الركنين الآخرين وهما جزءاً منها فَلِلْعَمَلِ أَصْلٌ يمكن الاعتماد عليه.

- الرابع: إن الإمام البخاري رحمه الله لما بَوَّبَ لحديث معاوية قال: (باب من لم يستلم إلا الركنين اليمانيين)⁽¹⁾، ولم يقل مثلاً (لا يُستلم إلا الركنين اليمانيين)*، وهو بذلك يشير إلى أن في الأمر سعة، وأن الصحابة قد اختلفوا في ذلك.

- الخامس: قال الإمام النووي رحمه الله: (وقد أجمعت الأمة على استحباب استلام الركنين اليمانيين، واتفق الجماهير على أنه لا يمسح الركنين الآخرين، واستحبه بعض السلف، ومن كان يقول باستلامهما: الحسن والحسين ابنا علي، وابن الزبير وجابر بن عبد الله، وأنس بن مالك، وعروة بن الزبير، وأبو الشعثاء جابر بن زيد⁽²⁾).

والظاهر أن ابن حجر العسقلاني يميل إلى مشروعية تقبيل الأركان كلها فنراه يقول: (استنبط بعضهم من مشروعية تقبيل الأركان جواز تقبيل كل من يستحق التعظيم من آدمي، وغيره)⁽³⁾.

وخلاصة هذا الموضوع أن هناك خمسة أمور جائزة:-

1- يجوز استلام الركنين.

2- يجوز تقبيل الركنين.

3- يجوز استلام الأركان كلها.

4- يجوز عدم الاستلام بل الإشارة فقط.

(1) البخاري، الصحيح: 582/2.

* لقد كان الامام البخاري رحمه الله دقيقاً جداً في التبويب فما رآه أمراً قطعياً عن النبي ﷺ قال فيه (باب لا...)، كما قال -مثلاً-: (باب لا يعطى الجزار من الهدى شيئاً). الصحيح: 613/2، ومنها قوله (باب لا يدخل الدجال المدينة)، الصحيح: 664/2.

(2) النووي، شرح مسلم: 14/9.

(3) ابن حجر، فتح الباري: 475/3.

5- يجوز ترك الاستلام والإشارة*.

هـ: الصَّلَاةُ خَلْفَ الْمَقَامِ: ما ورد عن النبي ﷺ أَنَّهُ صَلَّى خَلْفَ الْمَقَامِ رَكَعَتَيْنِ وَذَلِكَ بَعْدَ أَنْ أَتَمَّ طَوَافَهُ، عَنْ ابْنِ عَمْرٍو بْنِ دِينَارٍ، قَالَ: سَمِعْتُ ابْنَ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا يَقُولُ: قَدِمَ النَّبِيُّ ﷺ فَطَافَ بِالْبَيْتِ سَبْعًا، وَصَلَّى خَلْفَ الْمَقَامِ رَكَعَتَيْنِ، ثُمَّ خَرَجَ إِلَى الصَّفَا، وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ (1).

قال النووي: (اجمع العلماء أَنَّهُ يَنْبَغِي لِكُلِّ طَائِفٍ إِذَا فَرَغَ مِنْ طَوَافِهِ أَنْ يَصْلِيَ خَلْفَ الْمَقَامِ رَكَعَتِي الطَّوَافِ، وَاخْتَلَفُوا هَلْ هُمَا وَاجِبَتَانِ، أَمْ سَنَتَانِ؟ وَعِنْدُنَا فِيهِ خِلَافٌ حَاصِلُهُ ثَلَاثَةُ أَقْوَالٍ، أَصَحُّهَا أَنَّهُمَا سَنَةٌ، وَالثَّانِي: أَنَّهُمَا وَاجِبَتَانِ، وَالثَّالِثُ: إِنْ كَانَ طَوَافًا وَاجِبًا فَوَاجِبَتَانِ، وَإِلَّا فَسَنَتَانِ، وَسِوَاءُ قُلْنَا وَاجِبَتَانِ أَمْ سَنَتَانِ، وَلَوْ تَرَكَهُمَا لَمْ يَبْطُل طَوَافُهُ، وَالسَّنَةُ أَنْ يَصْلِيَهُمَا خَلْفَ الْمَقَامِ، فَإِنْ لَمْ يَفْعَلْ فِي الْحَجَرِ، وَإِلَّا فِي الْمَسْجِدِ، وَإِلَّا فِي مَكَّةَ وَسَائِرِ الْحَرَمِ، وَلَوْ صَلَّاهُمَا فِي وَطْنِهِ وَغَيْرِهِ مِنْ أَقْصَايِ الْأَرْضِ جَازٌ، وَلَا يُفَوِّتُ هَذِهِ مَا دَامَ حَيًّا، وَلَوْ أَرَادَ أَنْ يَطُوفَ أَطُوفَةً اسْتَحَبَّ أَنْ يَصْلِيَ عَقِبَ كُلِّ طَوَافٍ رَكَعَتِيهِ...) (2).

قلت: وما يلاحظ أَنَّ كَثِيرًا مِنَ الْحُجَّاجِ وَالْمُعْتَمِرِينَ وَعُمُومَ الطَّائِفِينَ يَشَدَّدُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ فِي ذَلِكَ، وَذَلِكَ أَنَّهُمْ يَصْلُونَ خَلْفَ الْمَقَامِ وَإِنْ كَانَ الزَّحَامُ شَدِيدًا وَبِذَلِكَ يَعْرِقُونَ حَرَكَةَ الطَّائِفِينَ فَيَدْخُلُونَ بِفَعْلِهِمْ هَذَا فِي الْخَطَأِ وَأَحْيَانًا فِي الْإِثْمِ فِي حِينَ أَنَّهُمْ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ حَظُّوا بِالْأَجْرِ وَالْمَثُوبَةِ، وَلِذَلِكَ فَالَّذِي أَشِيرَ إِلَيْهِ مَا يَأْتِي:-

1- إِنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ كُلَّهُ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ ► فَأَيْنَمَا صَلَّى الْمُصَلِّي فَهُوَ يَصْلِي عِنْدَ الْمَقَامِ.

2- إِذَا وَجَدَ الْمُصَلِّي زِحَامًا فَابْتَعَدَ عَنِ الْمَقَامِ وَصَلَّى بَعِيدًا-سِوَاءَ كَانَتْ صَلَاتُهُ تَلْقَاءَ الْمَقَامِ مِنْ بَعِيدٍ، أَمْ فِي نَوَاحِي الْمَسْجِدِ الْأُخْرَى-وَنَوَى مَعَ ذَلِكَ أَنْ لَا يُؤْذِيَ النَّاسَ وَلَا

* بل قد يكون فيه أجرٌ عظيم ولا سيما إذا كان الزحام قويًا، لئلا يؤدي المسلم إخوانه، وفي الأذية إثمٌ كبير.

(1) البخاري، الصحيح: 154/1 رقم 387، والآية من سورة الأحزاب، من الآية: 21.

(2) النووي، شرح صحيح مسلم: 8/175-176.

يعرقلهم، فإنه سيحظى بأجرين، الأول: أجر الصلاة، والثاني: أجر منع الأذى عن الناس، وقد تكون نيته بمنع الأذى مقبولة؛ لأنّ النية في القلب ولا يُداخلها الرياء غالباً، في حين كثيراً ما يداخل الصلاة الرياء.

4- وأرى لزماً في هذا الموضوع أن أشير إلى جهد مشكور وثنين قامت به الحكومة الرشيدة القائمة على خدمة الحرمين الشريفين؛ وذلك أنهم غيّروا بناء المقام فقد كان يمتد على مساحة كبيرة نسبياً من أرض المسجد وهي مساحة تضاهي مساحة الغرفة العادية، فقامت الحكومة بإزالة ذلك البناء وجعله بناءً يقتصر على حجر المقام فيراه الناس بيسر وسهولة، ولا يعرقل الطائفين وذلك كله يصب في التيسير على الناس. وخلاصة القول في الصلاة خلف المقام أنّه ينبغي أن نأخذ بالتيسير فالذي يترك الصلاة خلف المقام عند وجود الزحام فإنه يُيسّر على نفسه بأن يصلي بطمأنينة، وييسّر على المسلمين الطائفين ليكون طوافهم انسياباً.

والله أعلم.

المطلب الثالث: المفاضلة بين مكة المكرمة والمدينة المنورة

اتفق العلماء قديماً وحديثاً على أنّ أفضل بقعتين على وجه الأرض مكة والمدينة، ولكنهم اختلفوا في أيهما أفضل، على ثلاثة آراء:

-الرأي الأول: المدينة المنورة أفضل من مكة المكرمة: وهو مذهب سيدنا عمرؓ، وغيره من الصحابةؓ، وهو قول الإمام مالك وأكثر المدنيين⁽¹⁾، وجماعة من المحدثين منهم السيد محمد بن علوي المالكي المكي الحسني (ت: 2004م) رحمه الله⁽²⁾، وذلك للأمور الآتية:-

أ- لموضع القبر الشريف:

(1) عياض، الشفا: 91/2.

(2) في رحاب البيت الحرام: 169-171، وتتنظر مناقشته لأقوال العلماء: والمالكي، محمد بن علوي، لبّيك اللهم لبّيك، مطبعة دار المجمع العلمي، جدة، 1412هـ: نص: 155-157.

ذكر القاضي عياض (ت: 544هـ) وغيره أن انعقد الإجماع على إنّ أفضل بقع الأرض على الإطلاق المكان الذي ضمّ جسده \Rightarrow (1) وقال أيضاً: (وتفضيل ما ضمّ أعضائه الشريفة باعتبارين:

ما قيل: إن كل أحد يُدفن في الموضع الذي خُلِق منه.

تنزل الملائكة والبركات وإقبال الله تعالى عليه) (2).

وعن سيدنا أبي بكر الصديق \blacktriangleleft قال: سمعت رسول الله \Rightarrow يقول: \Rightarrow لا يقبضُ النبي إلّا في أحبِّ الأماكن إليه \Rightarrow (3)، وقال الشيخ يوسف النبهاني (ت: 1350هـ): (ولا شك أنّ أحبها إليه أحبها إلى ربه تعالى، فإن حُبّه تابعٌ لحب ربه جل وعلا، وما كان أحبّ إلى الله فكيف لا يكون أفضل) (4)، وقال السيد جعفر بن إسماعيل البرزنجي (ت: 1317هـ): (البقعة التي ضمت أعضاء سيد الأنبياء هي أفضل الأرض بإجماع العلماء) (5)، وتمثل بقول الشاعر:

جزم الجميع بأنّ خير الأرض ما قد حاط ذات المصطفى وحوها
وَنَعَمْ لقد صدقوا بساكنها علت كالنفس حين زكت زكى مأواها (6)
ولم تقتصر فضيلة القبر الشريف على بقاع الأرض فحسب بل صرّح الفاكهاني بتفضيله على السموات (7).

وهناك من ذهب إلى أعظم من ذلك، فقد نقل الشيخ يوسف النبهاني عن ابن عقيل الحنبلي قوله أنّ البقعة التي ضمت أعضائه الشريفة أفضل من العرش، قال: (وقد سأل سائل ابن عقيل: أيُّهما أفضل: حجرة النبي \Rightarrow أم الكعبة؟، فقال للسائل: إن

(1) النبهاني، يوسف بن إسماعيل، الأنوار المحمدية من المواهب اللدنية، ط1، بيروت: ص608.

(2) المصدر نفسه: ص607.

(3) أبو يعلى، المسند: 1/46 رقم45.

(4) النبهاني، المصدر السابق: ص608.

(5) البرزنجي، جعفر بن إسماعيل المدني، نزهة الناظرين في مسجد سيد الأولين والآخرين، ط1، مطبعة الجمالية، مصر، 1332هـ -

1914م: ص2.

(6) البيتان من قصيدة للعارف بالله أبو محمد بن عبد الله عمر بن موسى البسكري. السهودي، وفاء الوفا: 2/455.

(7) المغربي، محمد بن عبد الرحمن (ت: 954هـ)، مواهب الجليل، ط2، دار الفكر، بيروت، 1398هـ: ج3/ص345.

أردت مجرد الحجرة فالكعبة أفضل، وإن أردت وهو فيها، فلا والله ولا العرش وحملته، ولا جنة عدن، ولا الأفلاك الدائرة؛ لأنّ بالحجرة جسداً لو وزن بالكونين لرجح⁽¹⁾.

قلت: وقد سمعت من حضرة شيخنا مصطفى كمال الدين رحمه الله: التراب الذي حول قَدَم النبي ﷺ أفضل من العرش.

فاذا تقرر من الأقوال السالفة الذكر أن قبره الشريف ﷺ أفضل من الأرض والسماوات والأفلاك والملائكة والعرش وحملته، وهو جزء من المدينة، فالمدينة بهذا الاعتبار أفضل من مكة.

ب: لِلْفَضَائِلِ وَالْمَنَاقِبِ الْآتِيَةِ:

1- إنّ الله تعالى بدأ بها في قوله: ﴿وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مَدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مَخْرَجَ صِدْقٍ...﴾⁽²⁾، ومدخل الصدق المدينة، وكان القياس أن يبدأ بذكر المخرج الصدق وهو مكة ولكنه قدّم ذكر المدينة لأفضليتها.

2- عن عبد الله بن زيد المازني ◀ أن رسول الله ﷺ قال: ﴿ما بين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنة، ومنبري على حوضي﴾⁽³⁾، وضح أنه ﷺ قال: ﴿لموضع سوط أحدكم في الجنة خير من الدنيا وما فيها﴾⁽⁴⁾، وبمجموع الحديثين ثبت أنّ المدينة من خير الأرض.

3- وعن رافع بن خديج ◀ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ﴿المدينة خير من مكة﴾⁽⁵⁾.

(1) المقدسي، الفروع: 3/364، والمرداوي، الانصاف: 3/562. وينحو هذا القول في الخصفي، محمد علاء الدين (ت: 1088هـ)، الدرر

المختار، ط2، دار الفكر، بيروت، 1386هـ: ج2/ص626.

(2) سورة الاسراء، من الآية: 80.

(3) البخاري، الصحيح: 1/399 رقم 1137، ومسلم، الصحيح: 2/1010 رقم 1390.

(4) البخاري، الصحيح: 3/1059 رقم 2735.

(5) البخاري، التاريخ الكبير: 1/160 رقم 476، والطبراني، المعجم الكبير: 4/288، رقم 4450، وذكره الهيثمي في مجمع

الزوائد: 3/299 وقال: رواه الطبراني وفيه محمد بن داود وهو مجمع على ضعفه.

4- ومن ذلك قوله: ﴿اللهم إنك أخرجتني من أحبّ البقاع إليّ فأسكني في أحبّ البقاع إليك﴾ (1).

5- ومنه أنّ سيدنا عمر بن الخطاب قال لعبد الله بن عياش أنّك القائل مكة خيرٌ من المدينة؟ فقال عبد الله: هي حرمُ الله وأمنه وفيها بيته، فقال له سيدنا عمر: لا أقول في حرم الله ولا في بيته شيئاً (2).

قلت: ويظهر لي من خلال هذه الواقعة ما يأتي:-

أولاً: إنّ سيدنا عمر انتفض على تفضيل عبد الله لمكة؛ لأنّ المدينة أفضل، ولو لم يكن يرى كذلك لما اعترض على عبد الله.

ثانياً: أنّ في قوله "لا أقول في حرم الله ولا في بيته شيئاً"، يحتمل أمرين:

أحدهما: أنّه يشير إلى عبد الله أنّ فضيلة مكة ليست بخافية، وليس في مكة وفضلها كلامٌ أو اعتراض، ولكن الاعتراض على المفاضلة.

الآخر: أنّه ينبّه عبد الله إلى أنّه لم يفهم مقصوده من الاعتراض على تفضيل مكة.

الرأي الثاني: تفضيل مكة على المدينة شرفهما الله تعالى: وذهب إلى تفضيل مكة على المدينة الإمام أبو حنيفة، وابن وهب وابن حبيب من أصحاب مالك، والإمام الشافعي، والإمام أحمد، وهو قول عطاء وأهل مكة والكوفة، وأكثر العلماء (3)، واحتجوا لذلك بما يأتي:-

1- عن عبد الله بن عدي بن الحمراء الزهري، قال: رأيتُ رسول الله ﷺ واقفاً على الحزورة، فقال: ﴿والله إنّك لخيرُ أرضِ الله، وأحبّ أرضِ الله إلى الله، ولولا أنّي أُخرجتُ منك ما خرجت﴾ (4).

(1) الحاكم، المستدرک على الصحيحين: 4/3، رقم 4261.

(2) الإمام مالك، الموطأ: 1059/2، رقم 2735.

(3) ينظر: الزرقاني، شرح موطأ مالك: 4/293.

(4) الترمذي، الجامع الصحيح: 5/679، رقم 3925، وقال: هذا حديث حسن غريب صحيح.

2- عن ابن عباس رضي الله عنهما أنّ رسول الله ﷺ قال لمكة: ﴿مَا أَطْيَبَكَ مِنْ بَلَدٍ وَأَحَبَّكَ إِلَيَّ، وَلَوْلَا أَنَّ قَوْمِي أَخْرَجُونِي مِنْكَ مَا سَكَنْتُ غَيْرَكَ﴾ (1).
وهذا مردودٌ بالآتي:-

أ- إنّ هذين الحديثين وما في معناهما متقدمة على أحاديث تفضيل المدينة، والظاهر أنّه قال هذه الأحاديث قبل الهجرة، والمعلوم من قواعد الحديث أنّ الحديث المتأخر ينسخ المتقدم⁽²⁾.

ب- عند وصول النبي ﷺ إلى المدينة المنورة واستقراره وأصحابه بها، مرض بعض أصحابه فتحركت مشاعرهم نحو موطنهم القديم، فعلم بحالهم فدعا ربّه قائلاً: ﴿اللهم حَبِّبْ إلينا المدينة كَحُبِّنا مكة أو أشدَّ﴾ (3)، وفي هذا الحديث أمران:

- أحدهما: كلنا نؤمن ونعتقد ونوقرُ أنّ دعاءه ﷺ مستجاب.

-والآخر: قوله "أو أشد" يقتضي أنّ الحبّ للمدينة أصبح أكبر وأشد، وفيه نوع من التفضيل.

الرأي الثالث: التَّسْوِيَةُ بَيْنَهُمَا فِي الْفَضْلِ - زَادَهُمَا اللَّهُ تَعَالَى شَرَفًا وَحِفْظًا وَأَمْنًا - : وَقَالَ
بِالتَّسْوِيَةِ جَمَاعَةٌ مِنَ الصَّحَابَةِ وَالْعُلَمَاءِ ⁽⁴⁾، وَقَالَ الْعَارِفُ ابْنُ أَبِي جَمْرَةَ بِذَلِكَ مُسْتَدَلًّا
بِقَوْلِهِ: ➡ : ➡ لَيْسَ مِنْ بَلَدٍ إِلَّا سَيَطُوهُ الدَّجَالُ، إِلَّا مَكَّةَ
وَالْمَدِينَةَ... ➡ ⁽⁵⁾، وَقَالَ: ظَاهِرُ هَذَا الْحَدِيثِ يُعْطَى التَّسْوِيَةُ بَيْنَهُمَا فِي الْفَضْلِ ⁽⁶⁾.

قلت: وكيف تَسْتَوِي مدينةً آذت رسول الله ﷺ وكَدَّرتَ خاطره الشريف، ومدينة أَرْضت رسول الله ﷺ وأدخلت السرور على قلبه الشريف؟!.

(1) الترمذی، المصدر نفسه 5/680 رقم 3926 وقال: هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه.

(2) ينظر: الحلبي، علي بن حسن بن علي الأثرى، النكت على نزهة النظر في توضيح نخبة الفكر للعسقلاني، ط3، دار ابن

الجوزى، الرياض، 1416هـ-1995م: ص105.

(3) البخاري، الصحيح: 667/2 رقم 1790، وابن حبان، الصحيح: 9/41 رقم 3724.

(4) ينظر: الزرقاني، شرح موطأ مالك: 4/293، والنهاني، الأنوار المحمدية: 609، والعزامي، د. خليل إبراهيم ملا خاطر، فضائل المدينة

المنورة، ط2، دار القبة للثقافة الإسلامية، مؤسسة علوم القرآن، جدة، 1415هـ-1994م: ج2/ص209.

(5) سبق تخرجه.

(6) النبهاني، المصدر السابق: 609.

رَأْيُ الْبَاحِثِ فِي الْمِفَاضَلَةِ

لا بدّ لنا أن نعرف أولاً أنّ الاختلاف بين العلماء الذي ورد في هذا الباب إنما جاء من خلال فهمهم للنصوص، وعلى قدر الحال الروحي والشرعي لكل منهم، وإلاّ فلا اجتهداد في مورد النص.

وقد تبين لي من خلال البحث العلمي الدقيق، والتأمل المتواصل الدقيق للنصوص الشرعية الواردة في هذا الموضوع أنّ القول الأول هو الرّاجح، لما مرّ من أدلة وما استنبطته من الكتاب الكريم، والسنة المطهرة، والأدلة العقلية ووقائع الأحوال وبيان ذلك كله فيما يأتي:-

- أولاً: الاشارات في الكتاب الكريم:-

أ- قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُم الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجَرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾⁽¹⁾، وقد نزلت هذه الآية في الذين تباطئوا عن الهجرة بحجة الاستضعاف، وانطوت على عدة أمور تُشير إلى أفضلية المدينة، أبرزها:

1- إنّ الآية ذكرت مكة بلفظ الأرض، في حين ذكرت المدينة، فضلاً عن لفظ الجلالة "أرض الله"، وهي إشارة تشريف وتكميل.

2- وزادت الآية على إضافة التشريف صفةً أخرى للمدينة حين وصفتها بالسعة فقالت: "واسعة".

3- إنّ كلمة الأرض المشار بها إلى مكة جاءت على لسان المستضعفين الذين تباطئوا عن الهجرة، وكلمة "أرض الله واسعة" المشار به إلى المدينة جاءت على لسان الملائكة الكرام.

(1) سورة النساء، آية: 97.

ب: وقوله تعالى: ﴿وقل ربّ أدخلني مدخل صدق وأخرجني مخرج صدق واجعل لي من لدنك سلطاناً نصيراً﴾⁽¹⁾، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان النبي ﷺ بمكة ثم أُمر بالهجرة فنزلت عليه⁽²⁾، وفي هذه الآية عدة إشارات:-

1- إنّ الآية ذكرت مدخل الصدق وهو المدينة المنورة، قبل مخرج الصدق وهو مكة المكرمة، وكان القياس أن يبدأ بذكر المخرج، ولكنه بدأ بذكر المدخل في إشارة واضحة إلى أفضلية المدينة المنورة.

2- إنّ الله تعالى جعل في مدخل الصدق للمؤمنين المهاجرين سلطاناً نصيراً، ونصراً مبيناً.

3- كانت المدينة "مدخل الصدق" سبباً للفتح المبين، فتح "مخرج الصدق" مكة المكرمة.

ج: وقوله تعالى: ﴿والذين هاجروا في الله من بعد ما ظلموا لنبؤهم في الدنيا حسنة ولأجر الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون﴾⁽³⁾، فقد وصفت هذه الآية الكريمة المدينة المنورة بأنها المباءة الحسنة، وكان سيدنا عمرؓ إذا دَفَعَ إلى المهاجرين العطاء قال: هذا ما وعدكم الله في الدنيا، وما ادّخر لكم في الآخرة أكثر، ثم تلا الآية.

وقد حصل ذلك كله للمؤمنين في المدينة المنورة، في حين ذكرت الآية اضطهاد مشركي مكة للمسلمين، وتماديهم في الظلم عليهم حتى أجبروهم على ترك ديارهم وأموالهم وهل حصل ذلك كله إلا في مكة!.

-ثانياً: الأدلة من السنة المطهرة

وقد تكاثرت الأدلة من السنة المطهرة على فضائل المدينة والتي تشير بوضوح إلى أفضليتها؛ لذا سنقسم الأحاديث الواردة في ذلك على وفق الفضائل، فنقول:

(1) سورة الاسراء، آية: 80.

(2) الامام أحمد، المسند: 1/223 رقم 1948، والترمذي، الجامع الصحيح: 5/304 رقم 1339، وقال: هذا حديث حسن صحيح، وصححه

الحاكم. المستدرک على الصحيحين: 3/4/رقم 2459.

(3) سورة النحل، آية: 41.

أ- إنَّ البركة في المدينة ضِعْفَي ما بمكة بل هي أكثر؛ لقوله ﷻ: ﷻ اللهم اجعل البركة في المدينة ضِعْفَي ما بمكة من البركة ﷻ⁽¹⁾، وفي رواية: ﷻ واجعل مع البركة بركتين ﷻ⁽²⁾.

ب- إنَّ المدينة حُرِّمَتْ على لسان سيد الأنبياء والمرسلين صلوات ربي عليه وعليهم أجمعين، وقال ﷻ: ﷻ اللهم إنَّ إبراهيمَ حَرَّمَ مكةَ وإني أُحرم المدينة... ﷻ⁽³⁾، فهي حَرَّمُ حبيب الله مُحَمَّد ﷻ، في حين مكة هي حرم سيدنا إبراهيم ﷻ، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷻ: ﷻ لكل نبيٍّ حَرَّمٌ وَحَرَمِي المدينة... ﷻ⁽⁴⁾، ولا شكَّ أنَّ سيدنا محمداً ﷻ أعظم من سيدنا إبراهيم ﷻ فحرم سيدنا مُحَمَّد ﷻ أعظم.

ج- اختيار النبي ﷻ لها مضجعاً ودعائه أن يُقْبَضَ فيها؛ وذلك لأنه كان يحبها أكثر من مكة، عن ابن عمر رضي الله عنهما أنَّ النبي ﷻ كان إذا دَخَلَ مكة قال: ﷻ اللهم لا تجعل منايانا بها حتى تخرجنا منها ﷻ⁽⁵⁾، فإذا أكمل نُسُكَهُ عاد مسرعاً إلى المدينة، فإذا اقترب من حدودها حرَّك دابته من حبها وقال: ﷻ اللهم اجعل لنا بها قراراً ورزقاً حسناً ﷻ⁽⁶⁾.

د- إنَّ النبي ﷻ ترك دخول بيوت مكة بعد أن استقر بالمدينة، عن عطاء: أنَّ النبي ﷻ بعدما سكن المدينة كان لا يدخل بيوت مكة، قال: كان إذا طاف بالبيت

(1) البخاري، الصحيح: 666/2 رقم 1786، ومسلم، الصحيح: 994/2 رقم 1369.

(2) مسلم، المصدر نفسه: 1001/2 رقم 1374.

(3) المصدر نفسه: 1001/2 رقم 1374.

(4) الامام أحمد، المسند: 1/318 رقم 2923، وابن الجعد، علي بن الجعد بن عبيد الجوهري البغدادي (ت: 230هـ)، المسند، تحقيق: عامر أحمد حيدر، ط1، مؤسسة نادر، بيروت، 1410هـ-1990م: ص 492 رقم 3427، ورواه الطبراني في الأوسط: 6/356 رقم 6607، وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد: 301/3، وقال: رواه الطبراني في الأوسط ورجاله موثقون.

(5) الامام أحمد، المصدر السابق: 2/25 رقم 4778، ورواه الطبراني في الكبير: 12/356 رقم 13329، وذكره الهيثمي في مجمع

الزوائد: 5/253، وقال: رواه أحمد والبخاري وأحمد رجال الصحيح خلا محمد بن ربيعة وهو ثقة.

(6) البخاري، التاريخ الكبير: 2/245، رقم 2341، والنسائي، متن عمل اليوم والليلة: 173 رقم 557، والنووي، الأذكار: 374.

انطلق إلى أعلى مكة فاضطرب به البنية، قال عطاء: في حَجَّته فعل ذلك أيضاً، ونزل أعلى مكة قِبَلَ التعريف، وليلة النفر نزل أعلى الوادي (1).

وعن أبي رافع قال: قيل للنبي ﷺ يوم الفتح: ألا تنزل منزلك بالشَّعْب؟ قال: وهل ترك لنا عقيلٌ منزلاً؟! - وكان عقيل بن أبي طالب قد باع منزل رسول الله ﷺ ومنازل إخوته من الرجال والنساء بمكة حين هاجروا، ومنزل كل من هاجر من بني هاشم، فقيل لرسول الله ﷺ فانزل في بعض بيوت مكة في غير منزلك، فأبى رسول الله ﷺ وقال لا أدخل البيوت، فلم يزل مُضطرباً بالحجون لم يَدْخُل بيتاً، وكان يأتي المسجد من الحجون (2).

وهكذا فإن النبي ﷺ لما حجَّ حَجَّة الوداع فإنه ودَّع مكة وفيه إشارة إلى وداعها إلى الأبد، حتى عند نشر الناس فإنه ﷺ لا يقربها كما سيأتي.

هـ- إنَّ النبي ﷺ وأهل المدينة أول الناس نشرًا: عن ابن عمر رضي الله عنهما قال، قال رسول الله ﷺ: ﷺ أنا أول مَنْ تنشق عنه الأرض، ثم أبو بكر، ثم عمر، ثم آتي البقيع فيُحشرون معي، ثم أنتظر أهل مكة حتى أحشر بين الحرمين ﷺ (3)، فإن قيل: فما الدليل في ذلك؟ قلنا قد ذكر العلماء أنَّ مما اختصَّ الله تعالى به نبيه ﷺ أنه أول من تنشق عنه الأرض، وعُدَّ ذلك من خصائصه الكبرى، قال السيوطي: (باب اختصاصه بأنه أول مَنْ تنشق عنه الأرض) (4)، فإذا كان هذا خصوصية للنبي ﷺ فإنه بالضرورة يكون خصوصية لأهل المدينة، ثم إن في الحديث إشارة إلى أن النبي ﷺ عندما يُنشر ومعه أهل المدينة فإنهم ينتظرون أهل مكة، وفي ذلك دلالة على أن جميع البلدان تبعٌ للمدينة وأهلها.

(1) الأزرق، أخبار مكة: 2/161، والفاكهي، أخبار مكة: 3/248 رقم 2057.

(2) الأزرق، المصدر نفسه: 2/161، ولم أجده بهذا اللفظ فيما بين يدي من كتب الصحاح والسنن والمسانيد والمعاجم.

(3) الترمذي، الجامع الصحيح: 5/581 رقم 3692، وقال: هذا حديث غريب، وابن حبان، الصحيح: 15/324 رقم 6899، والطبراني، المعجم الكبير: 12/305 رقم 13190، ورقم 13191.

(4) السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر (ت: 911هـ)، الخصائص الكبرى (كفاية الطالب اللبيب في خصائص الحبيب ﷺ) ط2، مطبعة منير، بغداد، 1984م: ج2/ص217.

و- غلبة فضل المدينة على ما سواها من المدن: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **أُمِرْتُ بِقَرْيَةٍ تَأْكُلُ الْقَرْىَ يَقُولُونَ يَثْرِبُ، وَهِيَ الْمَدِينَةُ** ⇒ (1)، قال ابن حجر: (قوله "تأكل القرى" أي: تغلبهم... وقال ابن منير في الحاشية: يحتمل أن يكون المراد غلبة فضلها على فضل غيرها، ومعناه: أن الفضائل تـضمحل في جنب عظيم فضلها حتى تكاد تكون عَدَمًا) (2).

ز- إنَّ المدينة فُتحت بالقرآن في حين فُتحت مكة بالجيش والسلاح: عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها قالت: (كل البلاد افتتحت بالسيف، وافتتحت المدينة بالقرآن) (3)، فكلَّ البلدان بما فيها مكة المكرمة افتتحت بالقتال ومقارعة الأبطال إلاَّ المدينة المنورة فإنها فُتحت بالقرآن، وليكن نظرنا سليماً فالفرق ظاهرٌ وواضحٌ بين السيف والقرآن، ولا يظن ظانُّ أننا لا نؤمن بالسيف ونهمل فضيلته، فإنَّ له زماناً ووقتاً، كما إنَّ لمكة وقتها، وذلك مفهومٌ عند المنصف اللبيب.

ح- إنَّ المدينة المنورة مأرز الإيمان في آخر الزمان: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: **إِنَّ الْإِيمَانَ لِيَأْرُزَ إِلَى الْمَدِينَةِ كَمَا تَأْرُزُ الْحَيَةُ إِلَى جَحْرِهَا** ⇒ (4)، ومعنى يأرز: يَنْضَمُّ ويَجْتَمِعُ، وَجُحِرَها ثَقَبَها (5)، وذهب المناوي إلى أنَّ معنى الحديث هو إنَّ أهل الإيمان يجتمعون فيها وينضمون إليها، كما تنضمُّ الحية وتلجأ إلى جحرها- إذا انتشرت في طلب ما تعيش به فراعها شيء- فكذلك أهل الإيمان (6). وقد ظهر لي في معنى الحديث أمورٌ عدة:-

(1) البخاري، الصحيح: 662/2، رقم 1382، ومسلم، الصحيح: 1006/2، رقم 1382.

(2) ابن حجر، فتح الباري: 4/87.

(3) ابن النجار، أبو عبد الله محمد بن محمود البغدادي (ت: 643هـ)، تاريخ المدينة المنورة (الدرة الثمينة في أخبار المدينة)، تحقيق: عبد

الرزاق المهدي، ط1، دار الزمان، المدينة المنورة، 1424هـ-2033م: ص 67.

(4) البخاري، الصحيح: 663/2، رقم 1777، ومسلم، الصحيح: 131/1، رقم 147.

(5) ينظر: النووي، شرح صحيح مسلم: 177/2.

(6) ينظر: المناوي، فيض القدير: 324/2.

1- لا داعي أن نؤوّل "الايمان" الوارد في الحديث بأهل الإيمان بل الأولى أن نقول هو الايمان على الحقيقة وهو الذي يلوذ ويجتمع بالمدينة، فإذا تعرض الإيمان الحق لاعتداءات في عموم الأرض فإنه سيجتمع في المدينة، ولما كان أهل الإيمان الحق منتشرون في الأرض فإنهم عند فساد الأرض سيجمعون في المدينة.

2- إن علامة المؤمن الحق أن روحه تلجأ دوماً إلى المدينة فيبقى إليها بالأشواق حتى يحل بها.

3- إن الإيمان حين يلجأ إلى المدينة، فإنه لا يعود إليها لينتهي بل ليتجدد ويتقوى ويتنشط، وليواصل الحياة من جديد، حياة الدعوة والجهاد، وقد شبّهه بعودة الحية إلى جحرها فما الذي تصنعه في جحرها؟ هل تبقى فيه إلى الأبد؟ كلا، إنها تلجأ لتستريح وتستعدّ لعمل جديد في سنتها في الحياة.

4- إن هذا الحديث خصّ المدينة بعودة الإيمان إليها، ولم يقل مكة وفي ذلك إشارة واضحة إلى أفضلية المدينة، ولعل معترضاً يسارع إلى الاستشهاد برواية: ﴿يأرز مابين المسجدين...﴾⁽¹⁾، فنقول هي رواية في الصحيح ولا غبار عليها ولكنها ذكرت المسجدين عموماً، والرواية التي أوردناها تخصّ المدينة وهي الأكثر شهرة، ولم ترد رواية في الصحيح تخصّ مسجد مكة، وبذلك تظهر أفضلية المدينة.

ط: المدينة أفضل مكان عند ظهور الدجال: مرّ بنا أن مكة والمدينة هما المدينتان اللتان لا يدخلهما الدجال؛ لقوله: ﴿ليس من بلد إلا سيطؤه الدجال إلا مكة والمدينة...﴾⁽²⁾، حتى استدل بعض العلماء بذلك على المساواة بينهما في الفضل كما مرّ، ولكن قد ورد حديث صحيح يخصّ المدينة بمزيد الفضل عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: ﴿أشرف رسول الله ﷺ على فلق من أفلاق الحرّة ونحن

(1) مسلم، الصحيح: 1/131 رقم 146.

(2) سبق تخريجه.

معه فقال: نِعِمَّتِ الأرضُ المدينة إذا خرج الدجال ﴿١﴾، ونستخلص من هذا الحديث أمرين: -

أحدهما: أنَّ المدينة أفضلُ من مكة؛ لأنها ذكرت بالتحديد في هذا الحديث بأنها أفضل أرض عند خروج الدجال. والآخر: إنَّ هذا الحديث يردُّ على من قال بالتسوية بين مكة والمدينة؛ لأنه يخصص الحديث الذي استدلوا به.

ي: أهل المدينة يرجعون برسول الله ﷺ: لما فتح الله على نبيه ﷺ بالمال أعطى أهل مكة، ولم يعطِ الأنصار شيئاً، فقال بعضهم: إنَّ هذا هو العجب، يعطي قريشاً ويتركنا، وسيوفنا تقطر من دمائهم، فأبلغه بذلك سعد بن عبادَةَ سيد الأنصار، فجمعهم النبي ﷺ وحدهم، فحمد الله وأثنى عليه، ثم ذكر ما تفضل الله به عليهم، ثم ذكر ما تفضلوا به عليه ﷺ، ثم قال: ﴿أَوْجَدْتُمْ يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ فِي أَنْفُسِكُمْ فِي لَعَاةٍ* مِنَ الدُّنْيَا تَأْلَفْتُمْ بِهَا قَوْمًا لِيُسَلِّمُوا وَوَكَلْتُمْ إِلَى إِسْلَامِكُمْ؟! أَلَا تَرْضَوْنَ يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ أَنْ يَذْهَبَ النَّاسُ بِالشَّاةِ وَالْبَعِيرِ وَتَرْجِعُوا بِرَسُولِ اللَّهِ إِلَى رِحَالِكُمْ، فَوَ الَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَوْلَا الْهَجْرَةُ لَكُنْتُ أَمْرًا مِنَ الْأَنْصَارِ، وَلَوْ سَلَكَ النَّاسُ شِعْبًا، وَسَلَكَ الْأَنْصَارُ شِعْبًا لَسَلَكَتُ شِعْبَ الْأَنْصَارِ، اللَّهُمَّ ارْحَمْ الْأَنْصَارَ وَأَبْنَاءَ الْأَنْصَارِ، وَأَبْنَاءَ أَبْنَاءِ الْأَنْصَارِ، فَبَكَى الْقَوْمُ حَتَّى أَخْضَلُوا لِحَاهِمُ، فَقَالُوا: رَضِينَا بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَسْمًا وَحِطًّا ﴿٢﴾، ولما فتح النبي ﷺ مكة تخوف الأنصار أن يتركهم رسول الله ﷺ ويرجع إلى مكة، فلما علم ذلك قال لهم: ﴿كَلَّا إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ

(1) الامام أحمد، المسند: 292/3 رقم 14144، وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد: 308/3 وقال: رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح.

* اللعاعة: القليل من الكلاء، أو فضلة الماء. ينظر: الجزري، أبو السعادات المبارك بن محمد (ت: 606هـ)، النهاية في غريب الأثر، تحقيق: طاهر أحمد الزاوي، محمود محمد الطناحي، دار الكتب العلمية، بيروت، 1979م: ج4/ص254.

(2) البخاري، الصحيح: 1575/4 رقم 4078 و4079 مع اختلاف يسير في اللفظ، ويلفظه عند الامام

أحمد، المسند: 76/3 رقم 11748، وباختصار عند الترمذي، الجامع الصحيح: 5/669-670 رقم 3906، وقال: هذا حديث حسن صحيح.

هاجرت إلى الله وإليكُم المحيّا مَحْيَاكُمْ، والمماتُ مَمَاتِكُمْ ⇨ (1)، أي: أحيّا بينكم وأموت بينكم، وهل محياهم ومماتهم غير المدينة؟!.

ومن تأمل هذين الحديثين علم أفضلية المدينة، فما ظنك بجماعةٍ يترك النبي ⇨ الدنيا كلها لأجلهم وهو منهم وفيهم، وعند رجوع أهل مكة بالدنيا رجعوا برسول الله ⇨ إلى رحالهم، فكيف لا تكون رحالهم أعظم، وهل رحالهم إلا المدينة؟!.

وهناك معنى آخر دقيق في قوله "لولا الهجرة لكنت امرأً من الأنصار"، أي: لولا أنّه وقع عليّ اسم المهاجر لكان اسمي في الأنصار، وهل اسم المهاجر، إلّا المهاجر من مكة.

- ثالثاً: أدلةٌ عقليةٌ ووقائعٌ أحوال

بعد ما سقناه من استنباطات وأدلةٍ من الكتاب والسنة سنشير هنا إلى الأدلة العقلية ووقائع الأحوال التي تبين أنّ أفضلية المدينة واضحة كالشمس في رابعة النهار، وليست بحاجة إلى كثير من الأدلة والبراهين فنقول:

1- إنّ السر في عظمة المدينة أنّ أهلها قبلوا دعوة النبي ⇨ دون جدالٍ أو عناد، فأووه ونصروه وأدخلوا السرور على قلبه الشريف المبارك وبذلك فازوا برضا الله وخيري الدنيا والآخرة، في حين صدّ أهلُ مكة دعوته وبارزوه بالعداوة حتى أخرجوه فحُرموا خيراً كثيراً إلى يوم القيامة، وهل تستوي مدينةٌ أرضت رسول الله وأدخلت السرور على قلبه الشريف بمدينة آذت رسول الله وكدّرت خاطره الشريف!!.

2- من أفضلية المدينة المنورة أنّها أصبحت عاصمةً للدولة الإسلامية، وجميع البلدان تابعة للعاصمة بما فيها مكة المكرمة.

3- عندما ذكر السيد محمد بن علوي المالكي أدلةً من فضلوا مكة ردّ عليها، ثم قال: (وكل هذا عندنا يدلّ على فضل مكة وشرفها، ولا يدلّ على الأفضلية؛ فإنّ

(1) مسلم، الصحيح: 1406/3 رقم 1780، والنسائي، السنن الكبرى: 382/6 رقم 11298، وابن

حبان، الصحيح: 75/11 رقم 4760، والبيهقي، السنن الكبرى: 117/9.

وجوده ➡ بالمدينة لا تبقى معه أفضلية لِبَلَدٍ كائناً ما كان، ففيها قضى آخر حياته، وفيها انتقل إلى الرفيق الأعلى، وبها قبره ومنها يُبعث، فهل - بعد هذا - يبقى كلام المتكلم أو معارض؟! (1).

4- قال الحكيم الترمذي: (ذكر الزبير بن بكار الزبيري المدني ◀ كتاباً صنّفه بعض أهل المدينة في فضل المدينة، وكتاباً صنّفه بعض أهل مكة في فضل مكة، فلم يزل كل واحدٍ منهما يذكر بقعته بفضيلة يريد كل واحدٍ منهما أن يبرز على صاحبه بفضيلة بقعته، حتى برز المدني على المكي في خلةٍ واحدةٍ عجز عنها المكي، فقال: إنّ كل نفس إنما خلقت من تُرْبَتِها التي دُفنت فيها بعد الموت بالحق، ونفس الرسول ➡ إنما خُلقت من تربة مَدْفَنه، فبانَ أن تلك التربة لها فضيلة بارزة على سائر الأرضين) (2).

قلت: ويبدو لي أنّ مَنْ مالوا إلى تفضيل مكة من العلماء إنما قصدوا مجرد المقارنة بين مكانٍ ومكان، ولم يقصدوا تفضيلَ مكانٍ على المكان الذي فيه رسول الله ﷺ، وهذا المعنى هو ما أشار إليه ابنُ عقيل بقوله للسائل: إن أردتَ مجرد الحجرة فالكعبة أفضل، وإن أردتَ وهو ﷻ فيها، فلا والله، ولا العرش وحملته، ولا جنة عدن ولا الأفلاك الدائرة؛ لأنَّ بالحجرة جسداً لو وزن بالكونين لرجح.

وبعدُ، فإني لا أقول في مكة المكرمة وبيتها العتيق، وقبلتها المعظمة إلا ما قاله الصحابي رافع بن خديج ◀ لمروان بن الحكم عندما أطنب بذكر فضائل مكة ولم يذكر المدينة، فقال رافع بن خديج ◀ يائيهاذا المتكلم أراك قد أطنبت في ذكر مكة وذكرت منها فضلاً، وما سكتَ عنه من فضلها أكبر، وإني أشهدُ لرسولِ الله ﷺ يقول: ➡ المدينة خيرٌ من مَكَّة ➡ (3).

وأقول: ما سكتَ عنه الأفاضل من فضل مكة أكثر، ومع هذا فالمدينة أفضل، ورحم الله القائل:

(1) المالكي، في رحاب البيت الحرام: 171.

(2) الحكيم الترمذي، نواذر الأصول: 1/268.

(3) سبق تخريجه.

زَهَتْ طَيْبُهُ تَحْتَالُ فَحَرًّا بِأَحْمَدِ (1)

ولو مَكَّةً باهتَ بِكَعْبَةِ سَرْمَدِ

(1) ألفناني، زين الدين المخدم، البنيان المرصوص في شرح المولد المنقوص، مكتبة الحقيقة استانبول، 1499هـ - 1998م: ص102.